نشر هذا البحث فى
مايو ١٩٥٣

علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجرى

للدكتور/ السيد محمد يوسف

امتازت الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع إنتاجها النباتى والحيوانى والمعدنى كما أنها اشتهرت بجودة الصناعات المختلفة المرتكزة على ذلك الإنتاج الطبيعى، ثم هى تصاقب من الناحية الشرقية بلاد الصين التى اختصت بطائفة أخرى من الحاجيات والكماليات التى لم يكن للعالم الغربى بدمنها، ومن هنا نشأت "التجارة الشرقية" التى تنافس عليها المتنافسون من الفرس والعرب والروم، وأخيراً أقوام أوربا الغربية، أعنى البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والإنجليز، وقد استمرت هذه التجارة العالمية تجرى من الشرق إلى الغرب حتى غير مجراها الآلات والمخترعات الحديثة وما أدت إليه من الانقلاب الصناعى والتقدم الاقتصادى فى الممالك الغربية.

لقد كان لهذه التجارة أثرها الفعال فى مداولة الأيام بين الناس، فمثلاً يقول العلامة بارتولد: "صارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية فى زمن الساسانيين... واستولت براً وبحراً على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر، وبهذا الحادث يبتدئ انتقال التفوق فى الحضارة من أوربا إلى الشرق الأدنى" (الحضارة الإسلامية ، ١٩٥٠، ص ٤). كذلك يعتبر اهتداء واسكو دى كاما

(Vaseo da Gama) إلى طريق الهند نقطة التحول فى العلاقات بين الشرق والغرب، وحقا لئن كانت صفقة تفوق صفقة أبى غبشان فى الخسارة والغبن، فهى تلك التى جعلت أسد البحر ابن ماجد يقود رائد البرتغاليين إلى ميناء كاليكت (Calicut) فى سنة ١٤٩٨م.

فأثر تجارة الهند والصين فى التطورات السياسية بين الأمم الشرقية والغربية معروف عنى كثير من المؤرخين بإبرازه وتقدير خطورته، إلا أن هناك ناحية أخرى طالما بقيت غامضة مطوية لم تلق الاهتمام اللائق بها إلا منذ زمن قريب، ألا وهى تأثير العلاقات التجارية بالهند وما وراء الهند فى حضارات الفرس والعرب والروم فى العصور القديمة والوسطى، ولا أجد ما أقدم به لهذا الموضوع أحسن مما كتبه البروفسور هيرن (Heeren) العالم المتخصص فى العلاقات التجارية الدولية القديمة وهذا نصه :

" Of all the divisions of Asia the southern, containing the territory of Hindustan, is distinguished by the richness and diversity of its production. Here we not only find, (with very few exceptions), all the products of other parts of eivilised Asia, but so great a variety peculiar to its own climate, that it would appear as if a new and more beautiful creation had sprung up under the hand of nature. Nearly all the spices, which become necessary to mankind in exact proportion to the which become necessary to mankind in exact proportion to the progress of luxury and refinement, have at all times been peculiar to this region, while two of the most important articles used in clothing, viz., cotton and silk, were first produced here, and continue to be so in an especial degree through their cultivation has been gradually extended to other countries.... The influence which an intercourse with India may have had on the civilization of mankind, is a question worthy the close attention of the philosophical student of history; and one which, not withstanding the important illustrations it has of late

received, has been by no means sufficiently elucidated, it is of the greatest consequences to ascertain the channels through which, at various periods, it found its way, or into which it was conducted; and the whole course of history tends to prove that the countries which became the staples or depots of this commerce, uniformly attained at high degree of opulence and refinement; which, however gradually changed the habits and corrupted the manners of their inhabitants; at the same time that these were softened, sowing among them the seeds of luxury, and consequently of decline and ruin". A.H.L. Heeren: Historical Researches into the Polities, Intercourse and Trade of the principal Nations of Antiquity, Oxford, 1833, vol. I, pp. 33-35.

إذن كان من أثر تجارة الهند أن تطورت سبل المعيشة وأساليب الحياة، بل وتغيرت الأمزجة والطباع لغير واحد من الشعوب القاطنة غربى الهند، وغنى عن القول أن العرب، بالاشتراك مع الفرس سكان الخليج الفارسى، كانوا، بطبيعة مركزهم الجغرافى، أكثر تلك الشعوب اتصالاً وحرصاً على الاحتفاظ بدورهم فى حركة استيراد المنتجات الهندية المختلفة ونقلها عبر أراضيهم إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولئن كنا نأسف حقا لعدم وجود المصادر اللازمة للحصول على معلومات وافية عن نشاط العرب فى هذا الميدان فيما يتعلق بالعصور السابقة للإسلام، ففى وسعنا أن نتلافى هذا النقص بالرجوع إلى لغة العرب وآدابهم[1].

---

[1] يقرر الأستاذ هيرز هذا الأصل بقوله :

"We too often find curselves without the information necessary to follow the course of trade into the most remote regions: but when we meet with the mention of articles which are unquestionably peculiar to certain countries, we are warranted in concluding that a communication then existed with those countries, though we may be unable to define its nature and extent. A piece of sugar or a morsel of pepper in a neglected corner of a villageinn would be a certain proof of the trade with either Indies, even if wer possessed no other evidence of the commerce of the Dutch and English with these countries". Heeren, 139-40.

ودراستهما دراسة مقارنة على جانب اللغات الهندية مثل ما فعل العلماء الأفرنج بشأن دراسة علاقات الروم بالهند، وبما أن العرب كانوا فى موقع وسط بين الروم والهند فقد ألقت بحوثهم أضواء على العلاقات العربية الهندية إلا أنها، بطبيعة الحال، أضواء جانبية فقط، أما موضوع العلاقات العربية الهندية بالذات فقد بقى مغموراً مجحوداً لا لشئ إلا لعدم اتساع علم اللغويين الأول والمعنيين بالعرب والدخيل فى العربية إلى الهند ولغاتها، نراهم – وكثير منهم ينتمون إلى أصل فارسى – يقتصرون على إرجاع الكلمات إلى الفارسية، وفى بعض الأحيان يقفون حائرين أمام كلمات لا يجدون لها أصلاً بالفارسية فيأتون بتعليلات من الخيال[1] إن دلت على شئ فهو أن الكلمة عدت غريبة فى نظرهم، وأخيراً لفتت دراسات الغربيين النظر إلى هذا الموضوع الشيق فأقبل عليه العلماء الهنود بجد واهتمام، وفعلاً أثمرت جهودهم ثمرة طيبة من حيث أنها مهدت الطريق أمام الباحثين فى المستقبل إلى ميدان واسع بكر.

هناك ثلاث طرق سارت عليها تجارة الهند إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط:

(أ) برا من المرات على الحدود الشمالية الغربية للهند إلى بلخ، ثم على خط سير القوافل شمال صحراء كرمان إلى المدائن أنطاكية والموانئ المجاورة لها.

(ب) بحراً من الساحل الغربى للهند إلى الخليج الفارسى مصعداً بالفرات ثم براً إلى أنطاكية والموانئ المجاورة لها.

---

(١) راجع مثلاً كلمة "السندرة" و "الشال" فى مقالنا السابق عن "الكلمات الهندية المعربة" فى عدد مايو سنة ١٩٥١ م من هذه المجلة، كذلك الكلام على "الفالج" و "القافى" فى الجزء الثانى من هذا المقال.

(ج) بحراً من الساحل الغربي للهند إلى ساحل عمان إلى ساحل اليمن ومن هناك إما على طول ساحل البحر الأحمر أو على خط سير القوافل إلى موانى سوريا وفلسطين.

غني عن القول أن الطريق البرى استخدم قبل أن يستخدم الطريقان البحريان، وفعلاً وجد علماء الآثار ما يؤكد أن العلاقات بين أرض الأنهار الخمسة (البنجاب) وأرض الرافدين ترجع إلى عشرات القرون قبل عهد التاريخ المنتظم [١] إلا أن التجارة عن هذا الطريق كانت عبارة عن انتقال البضائع من قبيلة على أخرى ضد أحوال طبيعية صعبة وكانت أيضاً متأرجحة لعدم استقرار الأحوال السياسية، ولذلك كان التحول إلى الطريق البحرى ايذانا بزيادة ملحوظة فى التبادل التجارى بين البلدين.

والدليل الموثوق به على جلب البضائع براً من الهند فيلة [٢] على مسلة (Shalmanassar) (٨٥٨–٨٢٤ ق.م) ذكرت باسم غير معهود فى الآشورية هو (Baziati) عن السنسكرتية (Vasita) وبما أن الفيلة ذكرت إلى جانب "الأبل من (Bactria) ذات السنامين" يتأكد لدينا أنها نقلت بالطريق البرى عن الحدود الشمالية الغربية للهند[٣].

(١) Wilson: The Persian Culf, p. 28.

(٢) الفارسية "pil" السنسكرتية "pilu" إلا أن بعض العلماء يذهبون إلى أن هذه الكلمة ليست أصيلة فى السنسكرتية. انظر Hobson-Jobson, (Supplement, "Elephant"

(٣) Kennedy, J.; Early Commerce of Babylon with India. JRAS. 1898, p.242-288

ولا بأس بأن نقف قليلاً عند ذكر "الأبل من Bactria" فى القرن التاسع ق. م فنلاحظ أن من أشهر وأعز أصناف الأبل عند العرب "البختية" وهى على حد قولهم "الأبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج" (اللسان) والفالج: البعير ذو السنامين ... يحمل من السند للفحلة (الصحاح) وقد وصف الفالج بهذه الصفة ابن حوقل سنة ٣٥٠ هـ [1] والمقدسى سنة ٣٧٥هـ حيث يقول هو الآخر :

(من خصائص السند) "الفالج الذى تراه بالمشرق وفارس يولد البخاتى وهو أعظم من البخت له سنامان مليح لا يستعمل ولا يملكه إلا الملوك ولا تكون البخت إلا منه " [2].

والفالج كلمة سندية محلية والجيم فيها علامة العجمة لا غير مع أن بعضهم لم يعد مهم التعليل بأن الفالج "يسمى بذلك لأن سنامة نصفان" (المخصص ٦٨/٧) !!! وكذلك البختة "دخيل فى العربية أعجمى معرب" (اللسان ومثله فى المخصص ١٣٥/٧ عن صاحب العين). أذن فما هو أصل الكلمة؟ ولم ينصوا عليه بل ربما لم يهتدوا إليه حتى أن بعضهم اجترأ على القول بأن الكلمة عربية (انظر اللسان) ... على كل حال ما من شك فى أن "البختية" لم تكن غير "الأبل من Bactria" [3].

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً فى هذا الصدد أن أصحاب المعاجم قد فرقوا، جرياً على عادتهم، بين مادتى "بخت" و "بختر" إلا أن مشية الجمال البختية طوال الأعناق ذات السنامين هى أشبه شئ بمشية الخيلاء وقد جرت العرب على

[1] المسالك والممالك ص ٢٣١.

[2] أحسن التقاسيم ص ٤٨٢.

[3] انظر Dozy: Supplement

هذا المنوال فى قولها "تفختت" من مشى الفاختة (المخصص ٣/ ١٠٩) ومن الثابت أيضاً أنها كانت تصف النساء "بالبخت " قال الشاعر:

وفيهن من بخت سبحلة تكاد على غر السحاب ثروق[١]

أما العلاقات التجارية البحرية بين المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر وبين الهند فمن المقطوع به أنها راسخة فى القدم إلا أن الأدلة فيما يتعلق بالفترة السابقة لسنة ٧٠٠ ق./ لست بكثيرة، من أهمها:

١- ورد فى الكتابات التى ترجع إلى ما قبل ٢٠٠٠ق.م أن الأكادبين كانوا يستوردون الأخشاب من (Magan) (عمان)، ويرجح أن تلك الأخشاب إنما كان أهل عمان بدورهم يجلبونها من الساحل الغربى للهند [٢].

٢- كلمة (Sindhu) الواردة فى مكتبة (Assurbanipal) (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) إنما يرجع أصلها إلى الهند وهى تعنى "القطن الهندى" ومنها العبرية (Sadiu) والعربية "سدين" [٣].

٣- كلمة "Karpas" العبرية ("قرفس" بالعبرية) توافق السنسكرتية "Karpasa".

٤- فى القرن العاشر ق . م استعان سليمان، جريا على سياسة أبيه داود، بالفينقيين لتنشيط حركة الملاحة والتجارة بين ميناء (Ezion Geber) (العقبة)

(١) سمط اللآلى ٣٥١.

(٢) انظر Wilson : The Persian Gulf, p. 27 ولعل Magan هى "مزون" بالعربية [وقد انتقل هذا الاسم فيما بعد إلى شبه جزيرة سيناء حيث بقى بشكل "معان" فى المملكة الأردنية، كذا فى تاريخ العرب لحتى ص ٣٦].

(3)H.J. Rawlinson: Intercourse Between, India and the Western World. Cambridge, 1926, p. 2-3.

[1] و Abhira = Ophir أعالى الساحل الغربى للهند [2] وتعد الكلمات الآتية من آثار هذه الحركة التى كانت ولاشك أقدم بكثير من عهد سليمان، ولم يكن منه إلا أن جعلها مباشرة بعد أن كانت تجرى على أيدى وسطاء كثيرين:

(١) العبرية "Shen Habbin" = " سن الفيل"، (العاج) عن السنسكرية "ibha-danta".

(٢) العبرية (almug) [3] عن السنسكرتية والتاملية (valgu).

(٣) العبرية (Koph) القردة عن السنسكرتية (Kapi) [قارن المصرية القديمة (Kafu)].

(٤) العبرية (thuki-im) عن التأملية (tokei-togai) وعنها الفارسية والعربية "طاووس".

هذا بالإضافة إلى الذهب والفضة والأحجار الثمينة التى تتألف منها قائمة البضائع المستوردة من الهند على ذلك العهد [4].

ولا يخفى أن هذا الأدلة: قليلة كما هى، قد تناولها بعض العلماء بالتجريح والرفض [5] إلا أنهم فى الوقت نفسه أكدوا أن عدم توفير الدليل لا يعنى وجود ما

---

(١) لقد أمكن تحديد الموقع بتل الخليفة غربى العقبة على أثر الأعمال التى قامت بها بعثة أمريكية هناك أثناء ٤٠-١٩٣٨م.

(٢) اختلف كثيراً بشأن (Ophir)، بعضهم قرأوا الكلمة Sophir "سوبارة" بالهند أيضاً أو "ظفار" باليمن أو "سفالة" الزنج، إلا أن المرجح أنها كانت بالهند.

(٣) نوع من الخشب الثمين، الصندل الأحمر على الأرجح، راجع Cheyne: Eney. Biblica

(4) Rawlinson, pp. 10-11.

(٥) فى مقدمة هؤلاء الأستاذ J.Kennedy الذى مضت الإشارة إليه.

يمنع التجارة البحرية، بل بالعكس امتاز الدراوريون (Dravidians) سكان جنوب الهند منذ قديم الزمان بالاتجاه إلى الملاحة.

ومنذ القرن السادس ق.م ينقشع الظلام وتتوفر لدينا الأدلة القاطعة على ازدهار التجارة البحرية، منها:

(١) العثور على قطع من الساج [المرهتية (Sag)] وغيره من الأخشاب الهندية في قصر نبخت نصر (Nebuchadnezzar) (٦٠٤–٥٦٢ ق.م) وفى معبد إله القمر الذى جدد بخت نصر بناءه بـ (Ur).

(٢) انتشار عدد كبير من البضائع الهندية فى اليونان حيث كانت ترد عن طريق بابل ولا تزال أسماءها اليونانية والعربية ترشدنا إلى أصلها فمثلا:

السنسكرتية (Chandar) = العربية (صندل).

التاملية (Arisi) = العربية (الأرز) [١]

التاملية (Karppu) = العربية (قرفة).

التاملية (Inchiver) = العربية (زنجبيل).

---

(١) الرز والآرز لغات فيه (الإنجليزية "Rice") وقد اتجه بعض العلماء أخيراً إلى الاعتقاد بأن المركز الذى انتشر منه الأرز والرنتر فى العام هو التركستان ولذلك قالوا إن أصل الكلمة هو "Virinzi/virinza" بالفارسية القديمة = "briinj" بالفارسية الجديدة = "vrihi" بالسنسكرتية، انظر: Sir George Watt: The Commercial Products of India London, 1908, p. 824 estseq.

وليعلم أن كلمة أخرى مماثلة "الهبط: الأرز يطبخ باللبن والسمن خاصة" هندية أيضاً كما جاء فى المخصص ٣/٥ وأصلها "bhata"

التاملية (Pippali) = العربية (فلفل).

السنسكرية والتاملية (Vaidurya) [1] = العربية (بلور)

السنسكرتية (Kirmi) = العربية (قرمز).

فهذه هي بعض الكلمات الهندية الأصل التي دخلت اللغة اليونانية عن طريق بابل في الفترة التي نحن بصددها [2].

وقد بحث العلماء عن التطورات التي أدت إلى نمو التجارة البحرية بين بابل والهند في القرنين السابع والسادس ق.م فوجدوا أن تلك الظاهرة توافق تنكيل (Sennacherib) بالكلدانيين وإحلال الفينيقيين محلهم في سنة ٦٩٤ ق.م لأن الكلدانيين الذين سكنوا "سيف البحر"[3] منذ القرن التاسع ق.م لم يكن لهم من التفوق في الملاحة ما كان لأقرانهم الفينيقيين الذين جلبهم الملك الآشوري من أعالي دجلة والفرات وعلى هذا يمكن القول بأن شجاعة الفينيقيين وخبرتهم بأعمال الملاحظة والتجارة التي اكتسبوها في موطنهم الغربي هما اللتان تغلبتا على مخاوف البحر الهندي [4]. ومن ناحية أخرى نجد في المصادر الهندية الراجعة على هذا العهد ولا سيما المجموعة المسماة بـ "Baveru Jataka" قصصاً عن التجار الهنود

---

(١) بالبراكرتية "Vailurya". انظر "Beryl" Hobson-Jobson.

(2) Rawlinso n p.14

(٣) "Sealand" الوارد ذكره في الكتابات المسمارية والممتد من مصب الفرات إلى Dilmun = البحرين ويظهر أن العرب كانوا يعنون بـ "السيف" هذا السيف الغربي للخليج الفارسي خاصة، قال الأخنس بن شهاب:

لكيز لها البحران والسيف كله وأن يأتها بأس من الهند كارب

[الفضيلة ٩/٤١]

(٤) راجع مقال Kennedy السالف الذكر.

(أغلبهم من الدراويريين الذين مضى الالماع إليهم) قيل أنهم أثاروا إعجاب أهل بابل بالغرب تارة وبالطاؤوس تارة أخرى.

ولا يفوتنا فى هذا المقام التنويه بأن تجارة الهند هذه كانت السبب الرئيسى فى رخاء بابل وعظمتها التى بلغت أوجها فى هذا العصر حتى أثارت حسد فرعون مصر (نخاو) (Necho) (٦١٢–٥٩٦ ق.م) فما كان منه إلا أن بذل الكثير من الأموال والأرواح فى سبيل إعادة بناء القناة الموصلة من النيل إلى البحر الأحمر، تلك التى كان افتتحها لأول مرة (Sesostris) فى القرن العشرين ق.م.

* * *

وقد كان لهذه العلاقات أيضاً أثر خالد فى أربعة من أهم نواحى الحضارة فى الهند:

(١) الخط البراهمى (Brahmi)، الذى تفرعت منه الخطوط الهندية المختلفة، إنما كان من أصل سامى قوى الشبه بالحروف الفينيقية إلى درجة تؤكد أنه دخل الهند عن طريق الساحل الغربى على أيدى التجار الفينيقيين وقد حدد الدكتور بوهلر (Dr. Bühler) تاريخ دخوله الهند بسنة ٨٠٠ ق.م ومع أن هذا التحديد لا يزال موضع نقاش إلا أنه من البديهى أن الخط لابد وأن يكون قد مضى عليه قرون قبل أن يتطور فيتلاءم مع متقضيات اللغات الهندية كما يبدو فى الكتابات التى ترجع عهدها إلى القرن الثالث ق.م وهى أقدم الكتابات التى عثر عليها فى الهند [١].

(١) Cam. Hist. of India I, pp. 140-142. وانظر أيضاً دائرة المعارف البريطانية "Sanskrit" كذلك الخط الخروشتى الذى انتشر فى الناطق الشمالية الغربية للهند كان من أصل سامى آرامى.

(٢) نظام منازل القمر المعهود عند الهنود (Nakshatras) إنما هو مأخوذ من بابل.

(٣) يرجح الأستاذ كينيدى (Kennedy) أن الهنود إنما اقتبسوا نظام التعامل بالعملة الفضية المعروفة بـ " Purãnas" مما كان متبعاً عند أهل بابل [١] ولا يخى أن (Purãnas) أقدم عملة عرفت بالهند وقد استمر التعامل بها إلى عهد قريب، ويرى كاتب هذا المقال إنها هى المعنية بـ " الفهرى" عند مسعر بن مهلهل [٢] و " القهرى" (تصحيف "الفهرى" أو "الفنهرى")، عند المقدسى[٣].

(٤) يتبين بعض العلماء علاقة ما بين الأوزان الهندية القديمة وبين مثيلاتها عند أهل بابل مثل "المن" إلا أن أمرها مشكوك فيه جداً [٤].

فى سنة ٥٣٨ ق. م : امتدت سيطرة الفرس على بابل وغرب آسيا كلها وامتازوا بالجمع بين مصر من جهة ووادى السند من جهة أخرى فى حوزتهم إلا أن هذه الميزة، التى لا يمكن التقليل من أهميتها، لم تستخدم ، كنتيجة للمنازعات السياسية، لتسهيل التبادل بين المناطق الثلاث (البنجاب وبابل ومصر) التى كانت أهم مراكز التجارة الدولية، ومن ثم يعتبر هذا العهد — عهد الأكمنيين (Achæmenians) الذى امتد إلى ظهور الاسكندر (القرن الرابع ق.م) — عهد ركود على الرغم مما هو معروف عن دارا الأكبر (٥٢١-٤٨٥ ق.م) — أنه جهز وحدة

---

(١) راجع الجزء الثالث من مقالة الذى سبقت الإشارة إليه.

(٢) البلدان لياقوت "الصين" : "درهم (أهل كله) يزن نثى درهمهم ويعرف بالقهرى".

(٣) أحسن التقاسيم٤٨٢ – فى نسخة "الفنهرى" وليعلم أن المقدسى نفسه على أن القنهريات غير "القاهريات" أو "القندهاريات" (كما عند ابن حوقل ٢٢٨) = كل درهم منها خمسة دراهم.

(٤) Rawlinson P. 15

بحرية تحت قيادة (Sevlax) اليونانى للسفر وتفقد الأحوال من نهر السند إلى مصر كما أنه أنشأ قناة من النيل إلى السويس وأرسل من هنا سفنا إلى فارس.

لكن العلاقات التجارة بالهند كانت قد توطدت إلى حد أنها أبت لا أن تتخذ لها مجرى آخر [1]، فأن الفرس لما لجأوا إلى التنكيل بأهالى بابل وتخريب موانيهم وسد دجلة والفرات ما كان من الكلدانيين الذين قد عرفناهم من قبل، إلا أن نقلوا أنفسهم ونشاطهم إلى (Gerrha) (على شاطئ الحسا) التى سرعان ما أصبحت مدينة تجارية معروفة، وبعد قليل ظهر اليمنيون كمنافس قوى للكلدانيين فى هذا الميدان فاتخذوا من (Mouza) = موخا وقنا (Kane) وعدن مراكز لهم وما لبثوا أن جذبوا إليها معظم تجارة الهند وأفريقيا الاستوائية أيضاً بالإضافة إلى التجارة فى أنواع الطيب المحلية من جنوب جزيرة العرب وكلما تدفقت هذه التجارة على خط سير القوافل من اليمن إلى الشام — ذلك الخط الذى ربما سارت عليه بلقيس لزيارة سليمان — اشتهر قوم سبأ بالثروة والبسطة اللتين ضرب بهما المثل. وسنرى كيف أن فقدان هذه التجارة أدى على خراب العمران الذى أصبح هو الآخر مضرب المثل.

* * *

فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م. قلب الإسكندر الأوضاع ببسط سلطانه إلى حدود السند وسرعان ما أبدى اهتمامه بإعادة النشاط التجارى بين ساحل السند والخليج الفارسى فأرسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (Nearchus) على غرار ما كان فعله دارا الأكبر من قبل إلا أن موته حال دون القيام

---

(١) لعل تحول تجارة الهند عن طريق الخليج الفارسى إلى طريق البحر الأحمر كان قد بدأ فى عهد نبخت نصر ويعلل ونسنت Vincent تخريب ذلك الملك لدينة صور بهذا السبب نفسه. انظر Wilson p. 33.

بأى عمل آخر فى هذا الشأن. أما خلفاؤه الذين اقتسموا المملكة بينهم فقد شغلوا بالحروب الأهلية حتى أن السلوقيين (Selencids) لم يكن يهمهم غير الحصول على الفيلة من الهند عن طريق إيران كما أن خصمهم فى مصر بطلميوس الثانى كان معنياً بجلب ذلك الحيوان من الحبشة لأغراض حربية ولكن إلى جانب ذلك نلاحظ أن العلاقات بين ملوك الهند من جهة وملوك الشام ومصر من جهة أخرى كانت فى هذه الفترة أكثر توثقاً من ذى قبل، لا أدل على ذلك من وفود (Megasthenes) و (Dionysius) سفيرين لسلوكس وبطليموس على الترتيب لدى بلاط جندر كبت موريا (Chandragupta Maurya) ومما يذكر عن ملك الهند هذا أنه أقام عدداً من الموظفين للاتصال بالأجانب والسهر على راحتهم أثناء زياراتهم للهند ويستنتج من هذا كله أن التجارة بين الهند والخليج الفارسى لم تكن قد وقفت أو هبطت إلى درجة كبيرة، ثم ساعدت الأحوال السائدة بأعالى الخليج على تركيز هذه التجارة فى أيدى أهل (Gerrha) الذين رما كانت تتألف أغلبيتهم الآن من العرب وفى نفس الوقت كان نشاط سبأ فى ازدياد مستمر وقد شاركهم فى هذا النشاط النبطيون بأعالى البحر الأحمر، أولئك القوم الذين ما كانت عاصمتهم الرقيم (Petra) لتنال شهرتها فى التاريخ لولا أنها وقعت موقعاً هاماً على خطى سير للقوافل من اليمن ومن العقبة (Aelana) أيضاً.

لقد اتضح مما سبق أن مصير سبأ ورخاءها وحضارتها كانت مرتبطة ارتباطاً تاماً باستمرار تجارة الهند على الخط البرى المحاذي لساحل البحر الأحمر إلى أسواق الشام، وفعلاً نرى تجار سبأ حريصين حرصاً بالغاً على الاحتفاظ بهذا الخط إلى حد أن الروم واليونان كانوا يعتقدون طوال هذه المدة أن المنتجات الهندية التى

كانت تنقل إليهم عن هذا الطريق كانت من منتجات اليمن المحلية [١]. ويجدر بالملاحظة في هذا المقام أن الأخطار الشديدة التي كانت تحدق بالملاحة في البحر الأحمر فوق عدن من عدم وجود مواني صالحة وقلة الماء والقرصنة وما إليها كانت من أهم العوامل التي جعلت من الخط البري الطريق المفضل قروناً عديدة، إلا أن اليونانيين كانوا دائماً يبذلون محاولات جدية للتغلب على تلك الصعاب من قاعدتهم في مصر مما جعل اليمنيين يرقبون تصرفاتهم بيقظة وحذر، فمثلاً لما عمد بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ ق.م)، الذي كانت سلطته تمتد إلى فينيقية وفلسطين، إلى إعادة فتح القناة القديمة بين النيل والسويس (Arsinoe) أولاً وإنشاء الطريقين الصحراويين من (Koplos) إلى (Berenike) ومن(koplos) إلى (Myos Hormos). ثانياً أحدث ذلك رد فعل قوي بين اليمنيين. على كل حال أقصى ما توصل إليه اليونان، بعد هذه الجهود المضنية، هو ابتياع البضائع الهندية من حين إلى آخر في المواني اليمنية، خاصة (Mouza)، ثم نقلها إلى (Kopos) كما مر بدون أن يتسنى لهم الاستغناء عن وساطة سبأ ومن المعتقد أن النساء والكلاب والثيران والأبقار والتوابل الهندية المحملة على الجمال، تلك التي ازدان بها الموكب التاريخي لبطليموس الثاني سنة ٢٧١-٢٧٠ق.م إنما وصلت إلى عاصمة مصر بعد إعادة شحنها في المواني اليمنية. نعم وقد برز في هذه الآونة أيضاً اسم جزيرة سقوطرة [٢] كسوق دولي هاجر إليها واستوطنها اليونانيون [٣] للمشاركة في تجارة الهند والحبشة .

---

(1) Hitti : Hist of the Arabs P. 48.

(٢) السنسكرتية "Dtripa Sukhatara" أي جزيرة السعادة.

(٣) يقول أبو زيد السيرافي، سلسلة التواريخ، باريس ١٨٤٥، س ١٣٣-١٣٤، إن الاسكندر هو الذي اهتم باسكان اليونانيين تلك الجزيرة تحقيقاً لرغبة ارسطاطاليس في الاستيلاء على منابت الصبر بها.

فخلاصة القول أن تجارة الهند مازالت تتحول مـن الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر منذ بداية عهد الفرس الأكمنيين، بل وقبل ذلك منذ أيام بخت نصر إلى أن أصبح الطريق الأخير هو الطريق الرئيسى فى القرن الثانى ق.م وفى هذه الفترة بالذات أى منذ انتقال الكلدانيين إلى (Gerrha) بدأ العرب سكان المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية والجنوبية يمارسون هذه التجارة ويستولون عليها أكثر فأكثر حتى أصبحوا محتكرين لها يعضون على احتكارهم بالنواجذ ولم يستطع عملاؤهم اليونان، مع شدة قلقهم، إحداث أى تغيير جوهرى فى الوضع حتى القرن الثانى ق.م.

***

ولكن ما كان القرن الثانى يقترب من النهاية حتى حدث ما كان فى الواقع بداية لنهاية أمر العرب وهو أن ملاحاً هندياً غرقت سفينته فوصل فى قارب النجاة إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر حيث تولى الخفر نقله إلى الإسكندرية، وبينما هو فى تلك المدينة وقد أخذه الحنين إلى الوطن إذ التقى ب: (Eudoxus of Cyzicus) الذى كان له باع فى علم الجغرافيا، ولم يمض وقت طويل حتى تواعد الاثنان وحصلا على موافقة الملك (Euergetes II) ومساعداته للقيام برحلة إلى الهند وقد تم ذلك فعلاً ما بين ١٢٠–١١٠ ق.م (١) فرجع الملاح الهندى إلى أهله بعد أن دل يودوكسس على الطريق إلى الأرض التى كان يسمع عنها اليونان أن بها "أشجاراً تنبت الصوف" و " أحجاراً تذوب فى الفم فتكون أحلى من التين ومن العسل" (القطن والسكر على حد تعبير Herodotus, Megasthenes على الترتيب).

---

(١) انظر: Rawlinson p.96-99

ولم تكن نتائج هذه الرحلة، التى كانت الأولى من نوعها، لتضيع على الملاحين اليونان فقد أتبعها يودوكس نفسه على الأقل برحلة أخرى وما من شك أن آخرين حذوا حذوه من حين لآخر لأنا تفاجأ قبل مضى فتره طويلة بسبق الملاح اليونانى، المتمثل فى (Hippalus)، على العرب إلى الاكتشاف عن طريقة استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى السفر إلى الهند أيام الصيف. من المؤكد أن العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية، كفى دليلا على ذلك أن الكلمة العربية "موسمية" هى التى انتقلت وتطورت إلى (monsoon) لكنهم، لسبب ما، لم يكونوا قادرين على استخدامها أبان هياج البحر فى فصل الصيف بالذات[١]. مهما يكن من أمر فإن ما امتاز به اليونان كان كشفاً عظيما أدى إلى انقلاب خطير فى طرق الملاحة والتجارة ويؤرخ هذا الكشف – كشف (Hippalus) – فى سنة ٤٥م إلا أن بين أيدينا أدلة على تغلغل اليونان وكثرة ترددهم على المناطق التجارية بالهند قبل ذلك، منها إيفاد بعثة من قبل الملك (Pandion) بأقصى جنوب الهند[٢] إلى (Angustus) بمصر فى سنة ٢٠ ق.م، كذلك شهادة استرابو (Strabo) الصريحة بأن ١٢٠ مركباً سارت إلى الهند فى سنة واحدة (٢٥ ق.م) من ميناء (Myos Hormos)، ثم لا يخفى أن حملة (Aulius Galus) على اليمن فى عهد (Augustus) نفسه سنة ٢٤ ق.م لم تكن إلا حلقة فى سلسلة الخطوات لانتزاع تجارة الهند من أيدى العرب[٣] وذلك بالتواطؤ مع النبطين شركاء سبأ الذين سبقت

---

(١) سيجد القارئ بحثاً قيما عن هذا الموضوع فى: George Fadlo Hourani Arab Sea-faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951. P. 25

(٢) "Pandion" = Pandya هذا هو التفسير السائد وقد ذهب البعض إلى أن المراد به (Kadphises 1) "Porus" بالمنطقة الشمالية الغربية انظر Rawlinson p. 108

(٣) انظر: Hitti p.46

الاشارة إليهم، لكن الحملة فشلت فشلا ذريعاً وظل مركز العرب قوياً، إنما كان ناقوس الخطر قد دق وكان الخراب يتسرب إلى اليمن رويداً رويدا.

وبمناسبة ذكر الملك (Pandion) لا بأس بأن نستطرد قليلا لنضرب مثلا للفائدة التى تعود على الأدب العربى من الدراسات المقارنة فنقول ان مملكة (pandye) بأقصى جنوب الهند قد اشتهرت من قديم الزمان بمغاصات اللؤلؤ الواقعة فى المياه الضيقة بين ساحل الهند وجزيرة سيلان وجاء عنها فى الأساطير الهندوكية أن الإله كرشن (Krishna) جمع اللآلئ من أنحاء العالم وركزها فى تلك المنطقة لتتزين بها ابنته ملكة (Pandye). لقد ذكر (Megasthenes) المغاصات والأسطورة المتعلقة بها [١] كما لم يغفل الإشادة بها أحد من الزائرين لتلك المنطقة فى جميع العصور من بينهم سليمان التاجر [٢] وماركوبولو [٣]. إلا أنه كان بهذه المنطقة ميناء هام ربما سار اسمه مع اللآلى التى كانت تصدر منه وهو (Kolkai)[٤] وبما أن مياه البحر انحسرت وابتعد الساحل من موقع هذا الميناء أثناء العصور القديمة نفسها اختفت الإشارة إليه فيما عدا المصادر اليونانية الراجعة إلى الفترة التى نحن بصددها، ثم مضت قرون فاجأنا على أثرها الشاعر العربي علقمة بقوله:

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ ... من القلقى والكبيس الملوب [٥]

كذلك قول ابن الرومى أيضاً:

---

(١) Can. Hist. of Inidia ١/ ٤٢٣.

(٢) سلسلة التواريخ من ١٢٠.

(٣) The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers. London. 1931

(٤) على نهر Tamraparni بأقليم Tinnevelly. انظر The Periplus of the Erythrean Sea (Schoff), 1912, p. 237.

(٥) العقد الثمين ق ١/ ٤.

يفتر ذاك السواد عن يقق   من ثغرها كاللآلى القلق [١]

"القلقى" = الـ (Kolkai) لاغير. لكن أنظر ماجاء عنه فى اللسان "القلقى ضرب، من الحلى، قال ابن سيده: ولا أدرى إلى أى شئ نسب إلا أن يكون منسوبا إلى القلق الذى هو الاضطراب كأنه يضطرب فى سلكه ولايثبت ..." ! وفى بعض الأحيان ألجأت الحيرة النساخ إلى التحريف: "القلعى" بدل " القلقى" إلا أن الأمر لم يزل مغلقاً.

***

لقد سبق أن رأينا ما كان لـ (Gerrha) من شأن كبير فى التجارة الدولية، يبين لنا (Eratosthanes) (٢٧٦-١٩٤ ق.م) كيف أن أهلها – ولاشك أن غالبيتهم كانت من العرب – كانوا يقومون بنقل أنواع الطيب والبضائع الأخرى المجلوبة من جنوبى جزيرة العرب والحبشة إلى بابل و (Seleucia) كانوا ينقلونها بالقوافل البرية وربما أيضاً بالسفن التى كانت تصعد بدجلة إلى (Seleucia) نفسها [٢]، وقد كان لهم نصيب من تجارة الهند أيضاً مع أن معظمها كانت قد تحولت إلى اليمن والبحر الأحمر. ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء التجار الوسطاء على ساحل الخليج الفارسى استمروا فى أعمالهم ونشاطهم طوال قرون عديدة بدون أية محاولة للتدخل من قبل السلوقيين اللهم إلا ما كان من (Antiochus III) الذى أغار على (Gerrha) حوالى سنة ٢٠٥ ق. م لكنه سرعان ما رضى بالرجوع قانعاً بالغنائم والهدايا من البضائع التى كان الأهالى يتجرون بها ولا يخفى أن السلوكيين كانت لهم تجارة واسعة بالهند عن طريق البر (إيران) وهكذا ظل الحال أيام البارثيين (Parthians) الذين

(١) كتاب التشبيهات لابن أبى عون – تذكاركب – ص ٩٧.

(3) Wilson p. 45

استولوا على بابل والمدائن مابين ١٤٠ و ١٣٠ ق.م فهم أيضاً قصروا اهتمامهم على تجارة الهند (والصين وأيضاً) عن طريق البر فقط [1] وقد كانت تكفى لتدر عليهم أرباحاً طائلة. على كل حال لم يحدث فى منطقة الخليج الفارسى مثل ما حدث فى منطقة البحر الأحمر من منافسة اليونان للعرب.

***

لم تكد دعائم الامبراطورية الرومانية تتوطد فى سوريا وفى مصر قبيل بدء للتقويم المسيحى حتى نعمت البلاد بالاستقرار وتأمين السبل والقضاء على القرصنة مما أدى إلى شدة الإقبال على السلع الكماليات المستوردة من الهند والصين فى روما والإسكندرية والمدن الأخر، ولذلك يعتبر القرن الأول المسيحى أزهى عصور تجارة الهند بالغرب، أما التطورات التى كانت قد حدثت فى سير هذه التجارة بالنسبة إلى العرب فنتبينها بوضوح فى مذكرات بحار يونانى مجهول كتبها حوالى سنة ٨٠م باسم (The Periplus of the Erythraean Sea) – نتبين منها أن الملاحين الروم كانوا إذ ذاك يبحرون رأسا من قنا أو من (Ocelis) إلى (Cranganore = Muziris) بالجزء الأسفل من الساحل الغربى للهند وذلك فى الحقيقة يمثل تقدماً كبيراً على ماجرت عليه العرب من السير بمحاذاة الساحل إلى "منطقة البوازيج" [2] أى كجرات (Gujerat) وربما انحدروا من هناك إلى ساحل المليبار أيضاً – إلا أن الروم، على الرغم من تفوقهم هذا، كانوا لا يزالون بعيدين من القضاء على نفوذ العرب القديم فى الأسواق الهندية، يذكر أن الروم لم يكونوا يستطيعون الحصول على القرفة (اللحاء) إلا فى رأس (Guadrafui) لأنها كانت تحجب عنهم فى الأسواق الأصلية بينما كان

---

(1) Hourani p. 14

(٢) هكذا يسميها أبو الفداء : التقويم (باريس) س ٣٥٨.

ورق تلك الشجرة، شجرة القرفة نفسها، معروضاً عليهم فى المليبار حتى اشتهر بينهم باسم (Malabathrum) [1] وهذا أطرف مثال للأواصر الوطيدة بين المصدرين من التجار الهندوس والوسطاء العرب ضد عملائهم الروم.

لكن لا يظن أن الاتفاق بين الشريكين القديمين كان كفيلاً بمقاومة تغلغل الدخيل الجديد الذى اقتحم الميدان مسلحاً بالتفوق فى طرق الملاحة فإن المصدر نفسه أعنى (Periplus) يحدثنا أيضاً عن الموالاة بين الروم وبين حمير ملوك ظفار الذين كانوا قد حلوا محل سبأ منذ حوالى ١١٥ ق.م، وذلك شاهد علىَ أن العرب وإن لم يكونوا قد تركوا الميدان إلا أنهم كانوا قد بدءوا يهادنون خصومهم وهل ذلك إلا كنتيجة للضعف والوهن؟

ومما زاد الطين بلة ظهور منافس جديد للعرب فى تجارة الهند. لا يخفى أن الهندوس كانت لهم علاقات تجارية قديمة جداً بساحل الصومال والحبشة، لا أدل على ذلك من أن المصادر الهندوسية تحتوى على أقدم الإشارات إلى "رجال القمر" و "جبال القمر" [2]، ثم أن العرب، وإن لم يرحبوا بالتجار الهندوس فى الموانى، اليمنية، كانوا قد أمسكوا عن مزاحمتهم فى منطقة شرق أفريقيا [3] حتى أصبحت ملتقى للتجار الهنود والعرب واليونان والروم أيضاً وقد ظلت على حالها هذه إلى أن بدأ الحبشيون يتطلعون فى الفترة التى نحن بصددها إلى نصيب أكبر

---

(١) Periplus ص ٤.

(٢) المصدر نفسه س ٨٧ نقلاً عن Speke : Discovery of the Snorce of The Nile

(٣) المصدر نفسه ص ٣.

لأنفسهم من تجارة الهند وسرعان ما راحوا ينشدون تحالفاً مع الروم ضد العرب لهذا الغرض [1] وهكذا أصبحوا عاملا جديداً كان له شأن يذكر فيما بعد.

على كل حال بلغ استهلاك البضائع الشرقية، ولاسيما أنواع الطيب، ذروته فى عهد نيرو (Nero) — ٥٤-٦٨م — فقد ذكر بلينى (Pilny) أن المملكة الرومانية كانت تتكبد ما يقدر بمليون ومائة ألف جنيه سنوياً ثمناً لمشترياتها من جزيرة العرب والهند والصين وكان نصف هذا المبلغ تقريباً من نصيب الهند وحدها [2] وقد اضطر الملوك الذين جاءوا من بعد إلى فرض بعض التقشف صوناً للمركز المالى إلا أن حركة الاستيراد مازالت قوية حتى كان عهد طراجن (Trajan) — ٩٨-١١٧م — الذى سعى لتضييق الخناق على العرب وذلك بإعادة فتح القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر (وكانت قد انسدت منذ عهد البطليموس الثانى) وتوصيلها إلى بابل مصر ثم بضم أقليم النبطيين، الذين كانوا قد ساعدوا (Aulius Galus) ضد اليمنيين، إلى مملكته وإنشاء طريق رئيسى من العقبة إلى دمشق وأخيراً بانتزاعه جميع الأراضى الممتدة إلى (Charax) و (Apologus) بأعالى الخليج الفارسى من أيدى البارتيين. لاشك أن فكرة السيطرة على هذين الميناءين كانت فكرة سليمة جريئة لأنهما كانا على اتصال بحرى شرقاً بالهند وقد اتفق لطراجن نفسه حينما كان واقفاً على رصيف Charax أن رأى سفينة تتأهب للإقلاع إلى الهند فأسف على أنه لم يكن فى وسعه التقدم إلى تلك البلاد لكبره وكانت تمتد أيضاً من الميناءين خطوط تجارية غرباً إلى موانئ الشام وعلى ذلك فقد أراد طراجن أن يتم له الجمع بين منطقتى الخليج الفارسى والبحر الأحمر تحت سيطرته وتلك ميزة لم تتيسر من

(١) Hitti ص ٥٩.

(٢) Rawlinson ص ١٠٣.

قبل لغير دارا الأكبر والاسكندر، وكان يرجى أن تكون لمثل هذه الخطوة آثار بعيدة لولا أن البارتيين سرعان ما استردوا ما كانوا قد فقدوه فاقتصرت النتيجة على أن برز اسم مدينة (Plamyra) تدمر كخلف للرقيم التى خربها طراجن سنة ١٠٥م وقد نال هذا المركز التجارى الجديد قسطا وافراً من الازدهار لأن الفريقين رأيا من مصلحتهما عدم التعرض له حتى بقى أهله يتجرون فى كلتا المملكتين المتخاصمتين وينقلون البضائع بينهما وذلك سنة ٢٧٣م — الوقت الذى رأى فيه الروم أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت قد استولت على الرقيم من قبل.

يتجلى لنا فى جغرافية بطليموس (حوالى ١٥٠ — ١٦٠م) مدى التقدم الذى كان قد أحرزه التجار الروم فى الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعاً على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغالة بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و "بلاد الذهب" (جنوبى بورما وملايو) كما أن واحداً منهم على الأقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكنج (Tong King)، كذلك وصل وفد منهم فى سنة ١٦٦م إلى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الايرانيين لتجارة الحرير ويعرض إنشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند [(١)] ومن جهة أخرى تفيدنا المصادر الهندية التاملية (Tamil) عن وجود جاليات للروم فى جنوب الهند وانخراطهم فى خدمة الأمراء الهنود [(٢)] كما أن ظهور التجار الهند فى أسواق الإسكندرية– الأمر الذى يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن [(٣)] يعد دليلا على نمو العلاقات المباشرة بين الروم والهند.

---

(١) انظر Hirth: China & the Roman Orient, 1885 ص ١٧٣–١٧٨.

(٢) Rawlinson ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠.

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طيلة القرنين الثانى والثالث بينما أصبحت العرب غير ذات شأن إلى أن حدثت تطورات سياسية جديدة وساءت أحوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التى كان يتعامل بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة أن ركدت التجارة وتضاءت إلى أدنى حد بدليل أنه لم يعثر فى الهند على العملة الرومانية الراجعة إلى ما بعد ٢١١م إلا القليل النادر [١].

***

لقد رأينا آنفا كيف أن العرب غُلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلاً ليجنوا من ثمرات نصرهم فسنرى كيف أن الفرس حلوا محلّ العرب والروم جميعاً أثناء القرون التالية، نعم وقد اشتد أيضاً فى الوقت نفسه مركز الأحباش حتى أصبحوا المنازع الوحيد للفرس فى تجارة الهند:

انتقل زمام الحكم من البارتيين إلى الساسانيين فى سنة ٢٢٥م/ ومن أهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس — الناحية التى لم يلتفت إليها أسلافهم قط، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به أول ملوك الأسرة الجديدة، أردشير الأول (٢٢٥-٢٤١م) من إنشاء الموانى وما إليها. وفى مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربى على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسى ثم عن انتقام سابور الثانى من العرب بعد ذلك بزمن قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز العنصرين دوراً من المزج والصهر فى بوتقة واحدة. وفى هذه الأثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة ٣٣٠م كما أن حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبى من جزيرة العرب حتى أصبح التبع "ملك سبأ

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥١.

وحضرموت ويمنات وتهامة" لكن حمير كانت الآن مهددة تماماً من قبل الحبشيين الذين كان يجرى فى عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلاً بدأ ملوك أكسوم (Axum) يتحرشون بسكان الساحل الشرقى للبحر الأحمر منذ أواخر القرن الثالث حتى نجحوا فى النصف الأول من القرن الرابع فى إخضاع حمير لسيادتهم، ومع أن سياتهم لم تدم إلا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها إلا أن الحبشيين بقوا عاملا يعتد به فى كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة فى البحر الأحمر.

إنما مررنا سريعاً بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلة المصادر عنها غير أن الوقائع التى سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة فى النمو والاشتداد وما إن نصل إلى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهى تتلخص فى استيلاء الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة ٥٢٥م، ومما يسترعى الانتباه أن ذانواس لم يكن يملك أسطولا ولم يظهر أية مقاومة إلا بعد وصول المهاجمين إلى البر، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذى كان يتسرب إلى اليمين منذ قرون بشكل انشقاق سد مأرب ما بين ٥٤٢– ٥٧٠م [1] أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جداً، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانئ الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopious) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من "الصين" (Sinaea) الساحلية فى سيلان بينما كانوا هم أنفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا إلى (Seres) مصدر "السرق" [2] أى الصين الشمالية. فخلاصة

(١) المهم إن انشقاق سد مأرب كان نتيجة لاسبابا لخراب اليمن وتشتت سبأ. انظر Hitti ص ٦٥.

(٢) ظل العالم الغربى يجهل حقبة طويلة أن (Sinae) التى كان الوصول إليها عن طريق البحر و (Seres) التى كان الوصول إليها عن طريق البر إنما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد، كما أن سكانهما كانوا من شعب واحد، وتمثل كلمة "السرق" بالعربية (< بالإنجليزية "Silk") الحرير الوارد عن طريق البر أى إيران (بالفارسية "سره") والأصل بالمنغولية (Sirkek) والصينية ("ssi")

القول أنه لم يكن أحد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانئ الهندية إلا الحبشيون الذين كثيراً ما ترددوا ببضائعهم، ولا سيما العاج، على سيلان والساحل الغربى للهند حتى على موانئ الفرس أنفسهم وكانت (Adulis) (حالياً Massawa)، ميناء الحبشة الرئيسى (وقاعدة الهجوم على اليمن)، فى هذا الوقت مركزاً تجارياً هاماً لأن الروم كانوا قد اضطروا على قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز على باب المندب إلا قليلا، وهل أدل على تحرج موقف الروم وعجزهم من أنهم تو ماسمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد ٥٣١م بسفارة من قبل الإمبراطور (Justinian) إلى اكسوم يطلبون من الحبشيين أن يحاولوا شراء الحرير رأسا من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكى تتوفر الأموال التى كان الروم مضطرين على دفعها لأعدائهم الفرس، وفعلاً حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح إلا أنهم لم ينجحوا فى ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن إدارة الأمور فى أسواق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه إلى إنشاء مراكز لهم فى سقوطرة وفى (Adulis) نفسها وأخيراً نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لأنفسهم حوالى ٥٧٠م.

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق أفريقيا من جهة أخرى، وكان من الطبيعى أن يصبح الخليج الفارسى الطريق الرئيسى لتجارة الهند فى عهدهم، كما كان البحر الأحمر إبان نبوغ الروم من قبل. ونجد هذه الأحوال منعكسة على الشعر الجاهلى العربى والروايات التى وصلتنا

. انظر (Periplus) ص ٢٦٦.

كذلك يقول ابن خردازن (ص ٧٠) : " الذى يجئ من الصين .. السروج والسمور" — "السرج" هنا توازى ("serge") بالإنجليزية (فى الأصل ثوب مصنوع من الحرير)؟

عن ذلك العهد: أفهل أدل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي أن الأبلة كانت تعرف : "فرج الهند" [1] كذلك يرجح أن "عدولية" فى قول طرفة :

عدولية أو من سفين ابن يامن [2] يجور بها الملاح طوراً ويهتدى

هى السفينة المنسوبة إلى (Adulis) [3] مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسى.

بقى أن نتساءل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة فى هذا العهد؟ يبدو أنه لم يكن لهم صفة مستقلة، إنما كان أهالى عمان وما حواليها قد اختلطوا اختلاطاً كبيراً بجيرانهم الفرس، وكان من الطبيعى أن يشاركوهم أعمالهم مما أكسبهم دراية وخبرة. أولا نرى إلى أزد عمان وهم يحتقرون لكونهم " مزونيين" وملاحين كما أن كبراءهم ربما نسبوا فى معرض الهجو إلى أصل فارسى[4]. أما الصور الرائعة لمناظر البحر وأهواله وسير السفن فيه التى يزخر بها ديوان العرب، فلا يصح أن تتخذ دليلا على مزاولة العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما إذا كان هناك

---

(١) تاريخ الطبرى (ليدن ١٢/ ٢٠٢١. انظر أيضاً ٢٠٢٣ حيث جاء "كان فرج الهند أعظم فروج فارس شأنا وأشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب فى البر والهند فى البحر".

(٢) ورد ذكر ابن يامن فى بين لامرئ القيس أيضاً:

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائى يلين المشقرا

المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت). يرجح الدكتور سليمان الندوى أنه كان تاجراً عربياً يهوديا هناك (عربون كى جهاز رانى ص ٢٦).

(٣) انظر (Hourani) ص ٤٢. أما اللغويون فنجد أقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط: عن الأصمعى عدولى قرية بالبحرين، وقيل موضع يسمى عدولاة ـ وعن ابن الكلبى: عدو لى ليسو من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن إنما هم أمة على حدة (كذا فى اللسان "عدل").

(٤) المهلب بن أبى صفرة مثلاً.

ما يؤكد استهجانهم لها، إنما كانت تلك الصور كليشهات نقلت إلى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية [1].

***

علي ضوء ما سردناه آنفًا من الأوضاع السائدة فى القرن السادس نستطيع أن نفهم جيداً بعض الحوادث التى وقعت فى أوائل العهد الإسلامى، فمثلاً حملة أهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل السند وكجرات بدون سابق إذن من الخليفة الثانى عمر إنما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لإثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل، كذلك نرى كيف أن عمر الذى كان حذراً خائفاً من "حمل الدود على العود" اضطر إلى السماح بمهاجمة (Adulis) لإشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الإسلامية حتى شملت مصر من جهة والسند من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقا الخليج الفارسى والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تاقت الحكومات المختلفة على تحقيقها فلم توفق على إزالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد أن ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما إلى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلى، وبما أن خط الخليج الفارسى كان أكثر استقامة وأقرب مسافة وأوثق اتصالاً وأن التجار لم يلجأوا إلى البحر الأحمر إلا للضرورة، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ عهد الساسانيين ومما زاد فى نشاط هذه الناحية زيادة ملموسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة إلى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذى يبسط فيه مزايا الموقع الجغرافى لتلك المدينة يقوم أوضح دليل على

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية "السفينة".

أهمية العلاقات التجارية التى نحن بصددها، قال دهقان بغداد للمنصور: " ... تحمل إليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط فى دجلة ...." [1].

يصدق هذا القول ما أورده الرحالون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (٢٣٧ هـ) وابن خرداذبه (٢٣٢ هـ) والمسعودى (٣٣٢ هـ) والمقدسى (٣٧٥هـ) بشأن ازدهار التجارة والعمران فى الأبلة وسيراف والبصرة، لقد كانت المراكب تقلع من هذه الموانى على مسقط ومن هناك رأسا إلى كولم ملى (= Quilon) بجنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فإما إلى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقى وإما إلى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله (=Kedah بملايو) على الطريق إلى الصين، هذا فضلاً عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربى للهند فوق كولم ملى ومن أشهرها الديبل على مصب نهر السند وكنبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانة وصيمور (= Chimur) وسوباره (Churparaka = Sopara) بإقليم بومباى ولنقدر مدى توثق العلاقات بين المصدرين الهنود وزبائنهم بقول سليمان عن ملوك الكتكم (Konkon) أنهم "يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وتزعم أهل مملكة بلهرا (Rashtrakutas= "Vallabhra") إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم فى الملك لمحبتهم للعرب وليس فى الملوك أشد حباً للعرب منه وكذلك أهل مملكته"[2] لم لا والرخاء الاقتصادى فى البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات فى أسواق العرب؟

ومما يلاحظ فى هذا الصدد أن انتشار الإسلام إلى الجانب الشرقى للخليج الفارسى ساعد كثيراً على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل فى

(١) البلدان لياقوت (ط أوربا) ٦٨١/١.

(٢) سلسلة التواريخ ص ٢٧.

تلك المنطقة وقد كانوا اختلطوا وامتزجوا إلى حد كبير فى العصر السابق، ولذلك نراهم فى العصر الإسلامى يشتركون فى أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم فى استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من العسير التمييز بين العنصرين، إلا أن نظرة واحدة على أسماء النواخذة الوارد ذكرهم فى كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار [١] تكفى للتدليل على وجود العنصر الفارسى بل وعلى غلبته أيضاً.

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وفقاً لحاجة مصر لاغير وللسبب نفسه يرجح أنه زاد كلما ارتفع شأن مصر على إثر الانحلال الدولة العباسية، لاشك أن عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلزم إلا أنه لم يكن يهدف من ورائه غير نقل الميرة إلى الجار ميناء المدينة.

وأخيراً يجب التنبيه على أن ظهور الإسلام وإن أدى إلى قيام دولة واحدة تشرف على طريقى الخليج الفارسى والبحر الأحمر إلا أنه فى الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطينة، تلك القطيعة التى استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار إحدى الدولتين بالاطمئنان إلى إنشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة أن انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الإسلام وبلاد المسيحية فى أيدى اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله:

"يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف،

(١) Leide, 1883-86

ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم... ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربى فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وأن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون فى الفرات إلى بغداد، ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض[١]".

ثم يحدثنا ابن خرداذبة عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه:

"هم جنس من الصقالبة فأنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومى فيعشرهم صاحب الروم وإن صاروا فى تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون على بحر جرجان... وربما حملوا تجاراتهم من جرجان وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية . فيودون الجزية، فأما مسلكهم فى البر فأن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير على طنجة ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى

(١) المسالك والممالك ١٥٣-١٥٥.

الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين... [1]

هانحن نورد فيما يلى قائمة بأسماء البضائع التى كانت تستورد من الهند فى هذا العصر وقد التزمنا أن نمد خطا تحت الكلمات التى تحققنا من أصلها الهندى ويمكن الرجوع بشأنها الى مقالنا السابق عن "الكلمات الهندية المعربة" فى عدد مايو سنة ١٩٥١م من هذه المجلة واذا فاتتنا كلمة هناك عرضنا لأصلها بالهامش.

سأل الحجاج أيوب ابن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) عن الهند فأجاب بقوله: "بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر" [2] وقد عرض لهذا الموضوع بالتفصيل أبو زيد السيرا فى حيث قال:

"...بحر الهند والصين الذى فى بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب، وفى أفواه دوابه العاج، وفى منابته الأبنوس [3] والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الافواه الطيبة الذكية، وطيوره الفغاغى (يعنى الببغاوات والطواويس) وخرشات أرضه الزباد، وظباء المسك ومالا يحصيه أحد لكثرة خيره" [4].

---

(١) المسالك والممالك ١٥٣-١٥٥.

(٢) الاخبار الطوال للدنيورى ص٣٢٦.

(٣) كلمة من الهند الصينية صارت شرقا وغربا، هى بالصينيه "wu-mon-tzi" وبلهجة Amoy: "o-ban.tzi". أنظر "Chan Ju-Kua" بطر سبرج ١٩١١م ص٢١٦.

(٤) سلسلة التواريخ ١٣٧-١٣٨

والحقيقة أن الأحجار الثمينة والافاوية وأنواع الطيب تجئ على رأس قائمة المنتجات الهندية التى اشتهرت بين العرب والروم على السواء.

(أ) الأحجار الثمينة:

" الياقوت ألوانه كلها وأشباهه والماس [1] ، والدر [2]، والبلور، والسنباذج الذى يعالج به الجوهر[3]".

(ب) الأفاوية وانواع الطيب والبهار والتوابل والأبزار [4]: الكافور والمسك والصندل والعنبر والعود الهندى [5] والمندلى [6] والقمارى والصنفى [1] والقامرونى [2] والغار

---

(١) أصلها "Ind-mash " وقد وردت فى كتاب عجائب الهند ص١٢٨ "الادماس".

(٢) مضى الكلام على "القلقى".

(٣) من سرنديب، انظر ابن خرداذبه ص٧٠

(٤)بالسنسكرتية: "Pachala" = كل ما يصلح الطعام (أنظر .Wiliams: Sanskrit.Eng. Diet ص٥٦١) والكلمة بالأدوية "مسألة" مع أن بعضهم بدءوا يكتبونها "مصالح" وقالوا إنها جمع مصلحة أو تخفيف "ما صلح (كذا فى آب حيات لآزاد-المقدمة: وأنظر أيا "Holson-Jabson " .

(٥)"سمى عودا حتى صار اسما علمًا من قبل انه اشرف انواع العود" (المخصص ١١/١٩٨) .

(٦)نسبة الى مندل (Mandal) وهى تعنى "الاقليم" عامة والمشهور " كورومندل" بجنوب الهند الا انه قد ورد فى بعض المصادر ما يشعر بوجود "مندل" (= اقليم) آخر بالقرب من قامرون بشرق الهند. اما ما ذهب اليه (Ferrand) من ان النسبة الى (Mandri) مكان بعينه على الشاحل الجنوبى للهند فاحتمال بعيد جداً. انظر حدود العالم، تذكار كب. ١٩٣٧م ص٢٤٠. هذا وقد سجل الشاعر ضياء الدين نسبة المندلى الى الهند بقوله:-

" المندلى كريم   سقيا له ولغرسه
لما اراد يرينا   للهند نسبة جنسه
غدا على النار ملقى   يجود فيها بنفسه" (حلبة الكميت ص١٥٢)

وذكر ان الحسين بن برمك هو الذى حمل العود "المندلى" (كذا فى صبح الاعشى ١٢٦/٢، وفى

ولألوة والجوزبوا والبسباسة والكبابه والقاقلة، والهيل [٣] والسنبل والنردين والرند [٤] والزباد وفأر المسك[٥] والزنجبيل والقسط والفوفل[٦] والفلفل والقرنفل والكركم (=الهرد) [١]

النوبرى ٢٩/١٢ "الهندى") معه اثر عودته من الهند وعرضه على المنصور فاستحسنه وامر ان يكتب الى الهند بحمل الكثير منه فاشتهر بين الناس وعنر من يومئذ واحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكونه فى الثياب.

(١) نسبة الى قمار "Khmer" = Cambodia وصنف "Champa" =South Cochin China

(٢) نسبة إلى قامرون "kamarupa" = Assam بشرق الهند وأنظر وصف هذا العود فى سلسلة التواريخ ص١٣٠.

(٣)"الهيل" أو "الهال" هى بالسنسكرتيه " ايل" وبالفارسية " هيل" وكان معدنه رأس هيلى/ايلى على الساحل الغربى بجنوب الهند وذكره الجغرافيون العرب وابن بطوطة (الرحلة٤/٨١).

(٤) النردين وهو السنبل الهندى (باليونانية "Nardos") أصلها بالسنسكرتية "Nalada" (بالفارسية القديمة "ناردا"). أنظر ادى شيرى "الرند" و"Nard" Hobson-Jabson. والرند شجر طيب الرائحة أيضا، قال الشاعر:- أرى فى الهوى نارا لظبية آوقدت تشب وتذكى بعدهن وقودها

تشب بعيد ان اليلنجوج هو هنا وبالرند أحيانا غذاك وقودها

(النجلاء، فان فلوتن، ص٢٥٨)

ولعل أصل الكلمة "Karan/1waran(Kusa)" باللغة البنغالية. انظر watt ص ٤٦١ وربما فسرت الرند ب "العود الذى يتبخر به" (اللسان).

٥) دابة الزباد مثل السنور الصغير (بالانجليزية"civet-cat") كانت تجلب من نواحى الهند (المخصص ١١/٢٠٥) ويقول ابن الفقيه (البلدان ص١١) "ان الزباد اطيب رائحة من المسك والانثى تجلب مسكا وإذا مشى فى بيت نفحت منه رائحة المسك واذا لمسته بيدك عبقت بيدك".

كذلك فأر المسك كان يجلب من الهند. انظر المصادر نفسها.

(٦) بالفارسية "pupal" [السنسكرتية"Kubara"] قال المسعودى: "الفوفل وهو الذى قد غلب على اهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغه بدلا من الطين"

(مروج الذهب، باريس، ٢/٨٤).

(ج) العقاقير ومفردات الأدوية :

هذا باب واسع يحتاج إلى البحث من قبل المتخصصين، إنما نذكر على سبيل المثال:

الاطريفل[١] والهليلج[٣] والبليلج[٤] والبلاذر[٥].

ومن هذا القبيل السم [البيش] ودواء السم [الجدوار وبازهر] اللذين اشتهرت الهند بهما عند قدماء اليونان[٦] والعرب.

(د) الأخشاب:

قد رأينا سكان الخليج الفارسى اعتادوا استيراد الأخشاب من الهند و(الحبشة أيضاً)، منذ فجر التاريخ وهاهى أسماء بعض الأنواع المشهورة منها: الساج والساسم[٧] والقنا والوشيج والسراء والبان والخيزران.

(هـ) الألوان والأصباغ:

الأرجوان والقرمز والنيلج [١] والهرد[٢] والبقم والصرف والورس[٣]

---

(١) سيجئ الكلام على الهرر فى باب الاصباغ.

(٢) الهندية "Tiriphal"

(٣) الهندية "Herra"

(٤) الهندية "Behira"

(٥) الهندية "Bhilawa" [=Anacardiacae] جيد لفساد الذهن وجميع الأعراض الحادثة فى الدماغ من البرد والرطوبة، وهو من جملة السموم أيضاً (ابن البيطار) وقد لقب صاحب فتوح البلدان: "البلاذى" لأنه شرب من عصير هذا النبات فجن ومات.

(٦) Cam. Hist. of India ١/٤٠٥

(٧) الهندية "Shisham " السنسكرتيه "Sinsapa" ولعل "شيزى" هوالخشب من هذا النوع كان يستعمل لعمل القصاع والجفان خاصة (انظر اللسان"شيز") و"سم" .

(و) القطن ومنسوجاته:

لاشك أن الهند هى الموطن الأصلى لشجرة القطن إلا أن الشجرة الهندية الأصلية كانت طويلة العمر كما يبدو من أقوال القدماء، أما الشجرة التى تزرع سنوياً فالمظنون أنها نتجت على أيدى العرب فى العراق وسوريا والبلاد المجاورة، على كل حال اقترنت هذه الشجرة بالعرب إلى حد أنها هى والسكر والدين ربما اعتبرت المقومات الثلاثة لحضارتهم فى نظر الأوربين[٤].

هذا وقد اشتهرت الهند منذ قديم الزمان بالجودة ودقة منسوجاتها التى كان الثوب منها يدخل فى حلقة خاتم، كما شهد بذلك سليمان التاجر (سلسلة التواريخ ص٣٠) ويذكر ابن خردازبه (ص٧٠) أن الثياب القطنية المخملة كانت تجئ من الهند كما أن "الشبت" و "الفوطة"[٥] من الأسماء الهندية المعربة.

---

(١) السنسكرتية "nili"

(٢) السنسكرتية "hari dra" = الخشب الأصفر، الاردوية "haldi" أنظر watt ص٤٤٥– وهو الكركم كانوا يأتون به من الهند (ابن البيطار) وفى الحديث ينزل عيسى ابن مريم فى ثوبين مهرورين (المخصص ٢١١/١١).

(٣) البقم="Vakwa " بلغة مالايو والصرف="Shappan" بالتأملية– وشاعت كلمة "الورس" وانتقلت من العربية إلى اللغات الأوربية فى العصور الوسطى حتى أنه يقال إن Brazil من الورس، سميت تلك الخطة من العالم الجديد كذلك لوجود هذا النوع من الخشب فيها. آنظر "Brazil Wood" Hobson Jobson "Sappan Wood" and.

(٤) أنظر watt ص٥٦٩

(٥) قال الازهرى: رأيت بالكوفة أزراً مخططة يشتريها الحمالون والخدم فيتزرون بها، الواحدة فوطة، قال الجواليقى: فلا أدرى أعربى أم لا (أنظر العرب) والاصل بالهندية "Pata ".

وبالاضافة إلى منسوجات القطن امتازت الهند أيضاً بصناعة الثياب من الحشيش[1].

(ز) الفواكه:

النارجيل والموز الأترج[2] والليمون والنارنج[3] والتمر الهندى.

(ح) الحيوانات والطيور:

الفيل [والعاج] وقرون الكركدن [4] والطاؤوس [5] والجاموس [6].

(ط) المعادن :

(١) انظر ابن خرداذبه ص٧٠

(٢) الترنج لغة فية والاصل بالسنسكرتية "matulunga"

(٣) بالسنكسكرتية "Nagaranga". قال المسعودى " شجر النارنج والاترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلثماية فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامى وانطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه الروائح الخمرة الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد "مروج الذهب ٤٣٨/٢-٤٣٩" .

(٤) "لا أحسبه عربيا لأنه مفارق لابنيتهم" (المخصص ٥٨/٨) الأصل بالسنسكرتية "Khadgadanta" أى ذو سن كالسيف.

(٥) قال المسعودى للطواويس بأرض الهند شأن عجيب والذى يحمل منها إلى أرض الإسلام وتحرج عن أرض الهند فتبيض وتفرخ تكون صغيرة الأجسام كدرة الألوان لا تعطى أنواراً للأبصار بإدراكها وإنما تشبه بالهندية بالشبه اليسير.." المروج ١٣٨/٢.

(٦) "يقال إن سبب إخراجها من معادنها هو الطريق الذى بين انطاكية والمصيصة كانت مسبعة فشكى ذلك إلى الوليد بن عبد الملك فحمل فيها أربعة ألف جاموس وجاموسة مما كان الحجاج بن يوسف بعث به لما فتح بلاد الزلط من أرض الزلط على يد محمد بن القاسم وجعل ألفى جاموس وجاموسة فى آجام كسكر لما بنى واسط فهربت السباع حتى لا بقا (كذا) منها شئ" عن الفن الثالث من مباهج الفكر ومباهج العبر تأليف الشيخ برهان الدين ابراهيم بن شرف الدين يحى الوراق "دار الكتب المصرية" طبيعة رقم ٣٢٤ ورقة ١٢١.

الآنك و الاسرنج والكلس والتنكار [1] بالإضافة إلى الذهب.

(ى) المصنوعات المختلفة :

السيوف والأرماح والفانيذ[2] والأنبجات[3] والداذى والغضائر [4] والتوثياء [5] والنعال الكنباتية [6]

وأخيراً بعض ما يعن لنا من ملاحظات بشأن "الكلاب السلوقية".

يكثر عند العرب ذكر الكلاب "السلوقية" وهى على حد قولهم منسوبة إلى سلوق قرية باليمن إلا أنهم لا يستقرون على رأى بل يظهرون كأنهم يحومون حول (Seleucia) = سلقية التى يصفونها بمدينة الروم (معجم البكرى) ومدينة اللان ومدينة بالشام (البلدان لياقوت واللسان). لكن الجدير بالاهتمام تصريح القزوينى بأن

(١) من السنسكرتية انتقلت الكلمة إلى الفارسية واللغات الأخرى. انظر (watt) ص ١٧١، السنكرى والسمكرى بالعامية= التنكارى (محيط المحيط).

(٢) نوع من الحلوى كان يصدر من السند ومكران. انظر ابن حوقل ٢٣٢ والمقدسى ٤٨١.

(٣) هى المربيات (أو المربيات = المعمولات بالرب) جمع "أنبج" وهى فاكهة هندية تربى فأطلق عند الأطباء على ما سواه. كذا فى شفاء الغليل.

(٤) قال مسعر ابن مهلهل عن مدينة كولم بجنوب الهند: " وبها تعمل غضائر تباع فى بلداتنا على أنه صينى وليس هو صينى لأن طين الصين أصلب منه وأصبر على النار..." البلدان لياقوت "الصين"

(٥) انظر قول صفوان: ومن توتياء فى معادنه هندى " البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون) ٢٨/١.

(٦) أنظر المقدسى ٤٨١، نسبة إلى كنبايت (Cambay) وكانت النعال الكنباتية من الجودة والحسن بحيث أنها كانت تعتبر هدية فاخرة من العشاق إلى عشيقاتهم . انظر كتاب الموشى للوشاء (ليدن) ص ٩٤.

"الكلاب يسفدها الذئاب [1] فتأتى بالكلاب السلوقية" (الآثار ص ٢٩) وذلك يذكرنا بمشاهدة الاسكندر بأرض الهند وبصحبة الملك (Saubhüti) لكلاب لاترخى قبضتها على الأسد حتى ولو قطعت أرجلها، قيل أنها نتاج الكلاب من النمور [2] ثم نذكر أيضاً أن أهل بابل كانوا يستوردون الكلاب من الميناء الهندى المعروف (Barygaza) = بروص [3] كما نعرف أن الموكب التاريخى للبطليموس؛ Philadelphus كان حافلا بالكلاب الضوارى الهندية إلى جانب النساء الهنديات والتوابل الهندية، وبعد هذا كله نعثر على قول ابن رسته الآتى فى معرض الكلام على ملوك الهند:

"وبعده ملك يقال له نجابه (؟) وهو شريف فيهم وبلهرا الملك يتزوج فيهم وهم السلوقيون ولا يتزوجون إلا فيهم لشرفهم وهذه الكلاب السلوقية يقال أنها وقعت من بلادهم ولهم الصندل الأحمر فى بلادهم وغياضهم .... الخ[4].

---

(١) من طرائق النساخ أن "الذئاب" تحولت إلى "الثعالب" حيث جاء فى صبح الأعشى ٤٢/٢ نقلاً عن المقر الشهابى ابن فضل الله أن السلوقية "مولدة بين الثعالب والكلاب"!.

(٢) Cam. Hist. of Inida ٤٠٧/١.

(٣) أنظر Heeren ج ٢ ص٢٠٧

(٤) الأعلاق النفيسة ص ١٣٥.